

جوانب من حياة مصالي الحاج بمدينة تلمسان (المولد والنشأة)

أ. عبد الرحمن بالأعرج

قسم التاريخ - جامعة تلمسان

يزخر التاريخ التلمساني الحديث والمعاصر بالكثير من الشخصيات في الساحة السياسية الوطنية، ولعل من أبرزهم رجل امتزجت حياته الشخصية بالنضال المستمر والنشاط السياسي المنتج، والرؤية الواضحة للمستقبل الجزائري والتخطيط الواعي لتحقيق الاستقلال السياسي، وتحمل أعباء المعارضة المستمرة للمشاريع الاستعمارية، إنه مصالي الحاج الذي كتب عنه الكثير وسال الخبر غزيرا محاولة لتفسير مواقفه طيلة مسيرته النضالية. فما مدى تأثير البيئة التلمسانية في رسم معالم شخصية هذا الرجل وبنائها وصقلها؟

وللإجابة على ذلك ينبغي تتبع الخلفية التاريخية والجغرافية التي نشأ فيها الرجل، فمدينة تلمسان كانت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعيش كباقي المدن الجزائرية الأخرى على وقع النظام الاستعماري الفرنسي، وكان المعمرون يسيطرون على الأوضاع ويسيرونها على نغمتهم الاستغلالي في المجالات الاقتصادية محاولين تغيير البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري. وكانت عائلة مصالي المكونة من الأب أحمد (ت 1938) والأم فطيمة علي حاج الدين وستة أطفال، والقاطنة في مسكن بنهج باب الجياد يرجع للجدّة

بنقلفاط¹، تعاني كباقي العائلات التلمسانية من تبعات هذا النظام، حيث حولت مصلحة الحالة المدنية الفرنسية اسم العائلة من مصالي إلى مصالي²، وكانت تعيش على موارد متواضعة من مردود أرض الصفصاف شرق تلمسان بالمشاركة مع عائلة ممشاوي، وهي تنتمي روحيا إلى الطريقة الدرقاوية³.

في هذه الظروف وفي يوم 16 ماي 1898 ولد أحمد مصالي⁴، ونشأ تحت الرعاية المادية والمعنوية لجده بنقلفاط، وبعد وفاتها انتقل رفقة العائلة إلى حي الرحبية، وعاش هناك في جو يغلب عليه التدين والحفاظ على التقاليد وتعاليم الطريقة الدرقاوية، في حين لم تكن أحوال عائلته جيدة بسبب الفقر والحرمان الذي تشترك فيهما مع غالبية الجزائريين. وكان لأبيه الذي انتقل من العمل في الفلاحة إلى الاشتغال في شركة نقلات بين الحناية والرمشي أثر بالغ في لفت نظر مصالي إلى أن المعمرين هم السبب في تلك الأوضاع لاغتصامهم الأرض⁵.

دخل مصالي الكتاب العربي بجامع سيدي الوزان وحفظ عدة أحزاب من القرآن، ولما بلغ السبعة من عمره أدخله أبوه إلى المدرسة الفرنسية التي لم يكن مداوما عليها، حيث كان بالموازاة مع ذلك يتردد على زاوية الشيخ بن يلس⁶ الدرقاوية وفيها تعلم مبادئ العربية وأحاط بقسط من المعارف.

وقد تخلى مصالي لفترة عن المدرسة وعمل حلاقا متمرنا ثم إسكافيا، وفي سن العاشرة عمل عند أحد أقربائه بالحناية في محل للبقالة، وقد عانى كثيرا خلال هذه الفترة، ثم انتقل إلى العمل في مصنع للتبغ، وشارك في 1911 في مظاهرة بتلمسان ضد التجنيد الإجباري، وكانت تلمسان خلال هذه الفترة

تعيش حركة هجرة غير عادية خاصة نحو المشرق العربي دعا إليها كبار شيوخ المدينة أمثال الشيخ بن يلس والحاج جلول شلي⁷.

عاد مصالي إلى المدرسة سنة 1913 محاولا استدراك ما فاتته، لكنه أخفق في الحصول على الشهادة الابتدائية سنة 1916، وكان رفاقه يلقبونه بمحمامي الصف⁸.

تأثر مصالي في المدرسة الفرنسية أو في الزاوية الدرقاوية بمعلميه وشيوخه أمثال أبي عياد الذي كان يحث تلاميذه على العمل المنظم، والشيخ بن عودة برصالي الذي كان يكلم مريديه عن العمليات الحربية وقيام مصطفى كمال⁹.

إن هذا التكوين البسيط الذي حصل عليه مصالي في المدرسة والزاوية لم يكن كافيا ليفتح ذهنه على مجريات الأمور واستيعاب الأحداث، لكن دون شك قد أمدّه بأدوات هامة كإمكانية القراءة، غير أنه سيتأثر بعناصر وعوامل أخرى وكان استدعاؤه للخدمة العسكرية قد أحدث تحولا حاسما في مرحلة شبابه.

ففي سنة 1918 استدعي مصالي إلى الجندية، وحينها كانت الحرب العالمية الأولى في نهايتها، فغادر الجزائر في أبريل إلى فرنسا وحارب على الجبهة الأوربية، ثم استقر في بوردو، ولفت انتباهه الفرق الشاسع بين ريفها وتعاسة الفلاحين الجزائريين. وفي 1919 قام بزيارة قصيرة إلى تلمسان. ونظرا لمؤهلاته عين عريفا لكن دون مرتب إضافي وقد حاول الاحتجاج على هذا الإجحاف كتابيا وأجيب بالسلب كونه أهليا¹⁰.

وخلال هذه الفترة كان مصالي يرسل أصدقاءه في الزاوية الدرقاوية والذين كانوا يقدمون له الإرشادات الدينية، وضمن عناصر فصيلته تعرف على

جزائريين واحتك بالفرنسيين، وكان دائم التردد على مسرح بوردو، واهتم بالقراءة وسجل نفسه كمستمع حر في جامعة المدينة ليتلقى دروسا في اللغة العربية، كما شارك في محاضرات جامعة السوربون وكوليج دي فرانس¹¹.

وفي 28 فبراير 1921 تحصل مصالي على التسريح من الخدمة العسكرية وعاد إلى تلمسان وبحث عن عمل لكنه كان يصطدم باستبداد أصحاب العمل، وعرض عليه أبوه مساعدته في خدمة ضريح سيدي بومدين، لكن ذلك لم يكن يتناسب مع اهتماماته، فانكب على المطالعة رغبة منه في زيادة معارفه خاصة فيما يتعلق بالتاريخ العربي والإسلامي وهو ما كان محروما منه في المدرسة الفرنسية، وانضم إلى جمعية أصدقاء الكتاب وبها تعلم أصول الخطابة¹²، كما أعاد ربط علاقاته بالزاوية الدرقاوية وكان يحضر عقب كل صلاة مغرب ليستمع إلى دروس الشيخ محمد مرزوق الذي أثار اهتمامه¹³.

وفي إحدى الحفلات بإحدى المقاهي التي كانت غاصة بالسواح الإنجليز والأمريكان صعد مصالي على إحدى الطاولات وصاح يحيى مصطفى كمال، فاستدعي إلى مقر الشرطة وأخضع للتحقيق والاستنطاق، وقد أحدث ذلك انفجارا لمزاجه الثوري¹⁴.

كما صادف وجوده بتلمسان زيارة الأمير خالد¹⁵ للمدينة في نهاية 1922، حيث ألقى محاضرة عبر مصالي من خلال مذكراته عن خيبته الكبيرة منها لكون الأمير كان محاطا خلالها بجوازية المدينة، ولم يصدر أي نداء للتنظيم¹⁶.

وقد قارن هذه الزيارة بتلك التي قام بها المحامي بول فايون كوثيري¹⁷ نائب الحزب الشيوعي الفرنسي إلى تلمسان واتصاله بالجماهير، وفضل خطابه على خطاب الأمير خالد وقد يكون مرد ذلك إلى اطلاعه على نداءات الشيوعية العالمية التي كانت توزع مناشيرها في الجزائر منذ 1922، وتأثره بدفاع الشيوعيين عن مصالح العمال والفلاحين وتأييدهم للشعوب المستعمرة¹⁸.

ويبدو أن مصالي لم يجد ما يلي طموحاته في تلمسان، فلم يعثر على عمل يستقر فيه كما أنه كان تحت ضغط تقاليد العائلة، وهو شاب في الرابعة والعشرين من عمره إذ كان عليه أن يتزوج ويستقر خاصة بعد وفاة والدته (1922)، إضافة إلى ضغط الظروف الاقتصادية لذلك قرر أن يسافر إلى فرنسا¹⁹، هذه الهجرة التي سوف تغير حياته كلياً ويبدأ فصلاً جديداً من النشاط والنضال السياسي الوطني.

إن أثر البيئة التلمسانية بثقلها التاريخي والحضاري لا يخفى في جعل مصالي الحاج ذلك الرجل المناضل السياسي المخنك، خاصة في توجهه العربي والإسلامي -دون إغفال تأثير شخصيات مثل الأمير شكيب أرسلان- فهي بلد القرآن والزوايا التي نشأ الرجل في أكفائها وحافظ على تقاليدها حتى مماته.

الهوامش

¹ Jacques Simon, « Messali Hadj, le messalisme et la crise de MTL D », leQuotidien d'Oran, n°1126, 3 juin 1999, p9.

² بنيامين سطورا، مصالي الحاج (1898-1974) رائد الوطنية الجزائرية، تر: صادق عماري، مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر 1999، ص19.

³ طريقة صوفية كانت معادية للأتراك ثم من بعدهم الفرنسيون، ولها عدة فروع ويتميز مريدوها ببعض الخصائص منها: حمل العصا واتخاذ السبحة ذات الحبات الكبيرة، وإعفاء اللحية أبداً، والسير حفاً أو انتعال نعال بسيطة. عبد الحكيم مرتاض، الطرق لصوفية في الجزائر أصولها وتطورها حتى 1939، (مذكرة ماجستير)، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1998-1999، ص176.

⁴ عقد ميلاد مصالي الحاج مستخرج من بلدية تلمسان.

⁵ أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري: جذوره ونشاطه السياسي والاجتماعي، ج1، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص19.

⁶ الشيخ بن يلس (1854-1927): مؤسس الطريقة اليسية إحدى فروع الدرقاوية، وقد زاد الطريقة انتشارا بتلمسان ومنطقة وهران وأصبح أكبر شيوخها، هاجر إلى سوريا سنة 1911 وواصل نشاطه بها حتى وفاته بدمشق. محمد قنانش، محفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي 1926-1937، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص70.

⁷ حول هذه الهجرة يمكن الرجوع إلى: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج2، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص125 وما يليها.

⁸ بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص24.

⁹ محمد قنانش، المصدر السابق، ص70. وقد تولى الشيخ بن عودة برصالي التعليم بالزاوية خلفا للشيخ محمد بن يلس.

¹⁰ Messali Hadj, les mémoires de Messali Hadj (1898-1938), éd. Lattés, paris, -10 1982, p.106.

¹¹ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص398.

¹² Messali, op.cit., p.119.

¹³ Khaled Merzouk, L'itinéraire du Cheikh Si Mohammed Merzouk (1884-1939), Tlemcen, 2003, p.37.

¹⁴ محمد قنانش، المصدر السابق، ص70.

¹⁵ الأمير خالد الهاشمي حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، ولد سنة 1875 وأصبح ضابطاً أهلياً سنة 1879. شارك في الحرب العالمية الأولى برتبة نقيب ثم تقاعد عقب ذلك واتجه للنشاط السياسي والنيابي، وأصدر جريدة الإقدام ورفع مطالبه إلى مؤتمر فرساي سنة 1919. توفي سنة 1936. علي بورنان، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر، ج2، دار الأمل، الجزائر 2004، ص37-48.

¹⁶ Messali, op.cit., p.121-124.

¹⁷ قام المحامي كوثيري بجولة قادته إلى معظم المدن الجزائرية من سوق أهراس إلى تلمسان، ونشط خلالها 23 تجمعاً، واستمع إليه حوالي 50 ألف شخص بين أوريين وجزائريين، وقد كتب حول جولته هذه عدة حلقات في جريدة لومانيتي الفرنسية في الجزائر. لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

Jacques Jurquet, La révolution nationale algérienne et le P.C.F. (1920-1939), T.2, ed. du centenaire, paris 1974, p.143-148/431-458.

¹⁸ حول العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية والشيوعية ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص337-345. وكان كوثيري قد قدم تقريره حول إفريقيا والشيوعية إلى الأمانة الشيوعية.

¹⁹ أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص122.